أبو البركات البلفيقي، قاضيا ومؤرخا وشاعرا*

سوليداد خيبرت

ترجمة: **شعبان محمد مرسي****

تقديم المترجم:

كاتبة البحث الدكتورة سوليداد خيبرت فينيتش Soledad Gibert Fenech كانت أستاذة بكلية الآداب جامعة مدريد المركزية، التي أصبحت تسمى جامعة كومبلوتنسي.

وهي متخصصة في الأدب الأندلسي، وقد كتبت عدة بحوث ودراسات قيّمة نشرتها في **مجلة الأندلس** التي كان يرأسها غرسيه غومث، ونشرت بعض دراساتها في **مجلة المعهد المصري** بمدريد.

من هذه الدراسات بحثها عن الشاعر ابن خاتمة، وقد ترجمه أستاذنا الطاهر مكي، ونشره في كتابه **دراسات أندلسية**. وبحثها الآخر بعنوان "الشعر العربي الغرناطي وديوان من القرن الرابع عشر. ودراستها الأخرى" الشعر الأندلسي ولاسيما في المرية"، وكذلك "بعض غرائب الشعر الأندلسي".

والبحث الذي ترجمته "أبو البركات البلفيقي، قاضيا ومؤرخا وشاعرا" نشرته في **مجلة الأندلس**[1] وقد توفيت سوليداد في ٧/ ١١/ ٢٠٠٧ م.

---

* سيرة أبي البركات في الكتب الآتية: ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، ١٣١٩هـ، ج ٢، ص١٠١-١٢١، المقري، **نفح الطيب**، طبعة القاهرة، ١٣٦٤هـ/١٩٤٩م، ج٧، ص٣٩١- ٤٠٨، ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، طبعة حيدر آباد، ١٩٣١م، ج١، ص ١٥٥- ١٥٧، رقم الترجمة: ٤١٤، ٢٩١-٢٩٥، ابن فرحون، **الديباج**، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ، ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، طبعة فاس، ص ١٨٣-١٨٥، أحمد بابا التمبكتي، **نيل الابتهاج** على هامش **الديباج**، ص ٢٥٤، النباهي، **المرقبة العليا**، نشر: ليفي بروفنسفال، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ١٦٤- ١٦٧، ابن الخطيب، **الكتيبة الكامنة**، دراسة وتحقيق وترجمة: هناء الدواداري، مدريد، ١٩٦٣م، ص ١١٣، بونس بويجس، **مقال عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين**، مدريد، ١٨٩٨م، ص٣٣٣.

** أستاذ بكلية دار العلوم، القاهرة، مصر.

١- **مجلة الأندلس**، عدد ٢٨، سنة ١٩٦٣م، ج ٥، ص ٣٨١-٤٠٨.

ومازالت كتب أبي البركات مفقودة، ومنها ديوان شعره، وسبب ذلك هو حرق مؤلفات الأندلسيين المسلمين عقب سقوط غرناطة، وسوليداد كانت تتمنى أن تجد مخطوطات هذا الشاعر، وهي أمنية بعيدة المنال، ولكن لعل بعض تلاميذ أبي البركات نسخ شيئا منها في المغرب خلال رحلات المؤلف في تلك البلاد. ربما يكشف عنها في قابل الزمن، كما كشف عن بعض المخطوطات الضائعة.

والبلفيقي بفتح الباء واللام، نسبة إلى بلدة بلفيق، وهي بالأسبانية Velefique وكثير من الناس يقرأونها بتسكين اللام، وهو خطأ، إلا أن يكون من باب التسهيل لتوالي الحركات.

وقد رجعت في الترجمة إلى بعض النشرات الحديثة للمراجع التي في بحثها.

البحث

إن القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي، يقدم في المشهد التاريخي والثقافي داخل الأندلس عناية خاصة، ليس فقط من أجل هذه الحوادث التي جرت على هذه الأرض، بل من أجل الرجال الذين دبوا عليها، ومن بينهم من هو جدير بدراسة متأنية.

بقراءة الإحاطة لابن الخطيب، وكتابي المقري، **نفح الطيب** و**أزهار الرياض** والسير الموجودة في كتب الفهارس التي ألفها معاصرو أبي البركات، نلفي عددا عظيما من الأدباء يستحقون ـ في رأينا ـ أن يتبوأوا منزلة كبيرة بين الأدباء الأندلسيين المشهورين.

إن عملا دؤوبا صبورا لمسح الغبار الذي غطى هذه الشخصيات ومؤلفاتها يمكن أن يسهم في توسيع النظرة لتاريخ الأدب في تلك الحقبة.

لاشك أن هذاالقرن الرابع عشر ليس له من الأهمية الثقافية مثل ما كان للبلاط القرطبي المشرق، نحن لا نجد فيه العناية الشعرية التي سادت لدى ملوك الطوائف، ولا الإبداع المميز في حقل الشعر، بيد أننا لانستطيع أن ننفي وجود جماعة أخيرة من الأدباء والشعراء والمؤرخين الذين هم في وسط سياسي واضح، سائرة فيه دولة الإسلام في الأندلس عبر طريق مسدود، يبدو أنهم يريدون أن يتركوا لنا جهودا أخيرة في ذاكرة العلوم التي حصلوها، والثقافة والمعارف التي نالوها. كثير من مؤلفات هؤلاء العلماء الذين ذاع صيتهم في مملكة غرناطة قد فقدت، نعرف فحسب هذه الكتب من تراجمهم ومن فهارسهم، ومن النصوص المقتبسة التي تجعلها مصدرا لأعمال جليلة، هذا الضياع للمؤلفات أسهم بلا ريب في عدم معرفتنا بشهرة مؤلفيها، وهم الذين ظلوا هكذا منسيين بالكامل تقريبا.

من بين الأدباء والعلماء الذين ازدهروا في تلك الحقبة، والجدير بالذكر جماعة المرية الثقافية التي تتسم بمواهبها وفضائلها التي لا شك فيها.

إن كثيرا منهم شغلوا مناصب سياسية مهمة، وكانوا مرتبطين حقا بالغرناطيين، وعلى الرغم من هذه الصلة الدائمة بعاصمة المملكة، فقد شكلوا نواة لعالم مستقل. من هؤلاء الكتّاب الكثيرين، والشعراء العديدين، يبرز أبو جعفر بن خاتمة وابن ليون وأبو البركات البلفيقي. إن الثلاثة، متحدين بصداقتهم الوثيقة، وعلاقتهم علاقة الأستاذ بالتلميذ، لهم خصائص متشابهة، وهم في الوقت عينه شعراء وصوفيون وزهّاد العصر الذي عاشوا فيه، روح ديني مخلص، واستقامة في النفوس كبيرة، وحياة زاهدة تقريبا، وإنها لمناقب مشتركة بينهم، ربما ازدهرت لبيئتهم الوعرة، الجبلية الطامحة، ولصحرائهم القاحلة، كانوا مثل أسلافهم شعراء وزهادا. إن الإنسان الذي سندرس حياته كان دون شك من أشهر العلماء وأنبلهم في المرية والأندلس على أيامه.

اسمه كاملا طبقا لمن ترجموا له: محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف ابن محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حرز الله بن عامر بن سعد الخير بن أبي عتيق بن عباس بن محمد بن محمود (الذي دخل الأندلس بصحبة موسى بن نصير) بن عنبسة بن حارث بن عباس بن مرداس السلمي، وكنيته أبو عبدالله، مشهور بأبي البركات ابن الحاج، ومعروف بنسبته البلفيقي.

كما نرى، كان أبو البركات من أبناء قبيلة عظيمة، تنتمي إلى فرع من مضر، وأحد أجداده عباس بن مرداس السلمي، كان صحابيا مشهورا من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن الشاعرة الخنساء، وكان شاعرا بليغا، معروفا أيضًا.

ونسبة البلفيقي والتي حملها كذلك أبوه، وجدّه العظيم أبو إسحاق إبراهيم، ينبغي أن تكون أصلا من بلفيق، وهي قرية صغيرة تقع في شمال المرية، **تاج العروس** يقول عن هذا المكان: قلعة بالمرية، وواحدة من أشهر الأماكن في الأندلس، موطن أبي البركات البلفيقي، شيخ ابن الخطيب.

ويصف **قاموس مادوف** هذه القرية بقوله: "بلفيق تقع على المنحدر الجنوبي من صحراء فيلابرس، وفي الغرب تل قديم، وفوقه حصن صغير من عمل المسلمين، كان له أهمية كبيرة في زمنه، لم يبق منه إلا قطع صغيرة، وجبان، وصهاريج متحجرة، وبركتان يأتيهما الماء عبر قناة طويلة، ومنها يحمل على الأذرع إلى الجبين المذكورين. وعلى مسافة مئتي متر من التل المذكور توجد أربع حوائط خارجية لمبنى قديم مهدمة تقريبا كلها، يعتقد أنها كانت مصلى لإحدى الأمم الغازية، اليوم هي مقبرة. وفي منتصف المسافة التي يرى منها الحصن يقوم برج مربع الشكل من حجر صلب متين البناء،غير أنه مهدم في جانب كبير بعوامل الزمن. استولى عليه الملوك الكاثوليك من المسلمين سنة ١٤٨٣م.

انتقل إلى ملكية كونت بويبلا ديلمايستري ومن بعده، الذين كانوا يعينون العمدة بدانيو إلى ما بعد حرب الاستقلال، ثم ضمت إلى الدولة، وصارت من اختصاصها.

ومنذ قريب حدتنا الرغبة لنتحقق من وجود بقايا هذه المنشآت، ولنعرف هذا المكان، فزرنا قرية بلفيق، وهناك وجدنا الترحيب الحار، والمعرفة التامة، القس دون فرناندو جومث لارا، الذي يسعدني أن أشكره، صحبني شخصيا خلال التجول في هذا التل الصغير الذي يوجد به أطلال الحصن والجبين كما وصفهما مادوث، وكما ذكر لنا المقري من خبره في **نفح الطيب**، والذي سمح لنا بتحديده في جانب منه.

السيد غوث لارا ومساعد البلدية دون خوسيه سولا، صحبانا بمعاونة كبرى في المنطقة التي تهمنا. في أعلى التل نستطيع أن نرى أبراجا مختلفة نصف مدمرة، بعض الملحقات في حالة سيئة لعدم الحفاظ عليها، والجبان مازالا في حالة جيدة، لأنهما مبنيان بأحجار صلبة، ويا حسرة لم يحدث هذا للحصن ولا السور، لأن المواد المستعملة والمركبة أقل صلابة، ومن العجيب أن نلحظ أن أكثر منازل القرية المعاصرة تسير على النمط نفسه من البناء، وتبدي مشهدا مشابها لمنظر الحصن. إن الموقع المنعزل تماما عن بلفيق يوضح طريقة استعمال هذه المادة التي تكثر في جبالها، نقلها من مكان آخر عمل عسير، والطريق الذي يسلك هناك منحرف قليلا، ويلتقي بجادة تابرنا، التي هي حتى عهد قريب غير معبّدة للسيارات، وينتهي عند القرية التي على منحدر الصحراء، في كل المواقع القريبة من تابرنا، كما كان يقول ابن الخطيب: "قليلة المياه، دمرتها الحروب، وهي مأوى للوحوش ومنازل للعزلة والانقطاع".

موقع الحصن الذي مازال بعض أروقته موجودة في حالة صعبة وشبه مدفونة، متصلة ماديا فوق نتوء من الجبل، وهي رائعة تطل بالكامل على مدخل الوادي، وهي أيضا موقع دفاعي في نقطة بالغة الأهمية. إن الموقع الجغرافي لهذه القرية ومنعتها الدفاعية، جعلا عزلتها مفهومة، وروحها الاستقلالي كذلك، ولدينا أخبار عن ذلك من عصور ماضية، وقد كان ابن حزم يقول: "إن بلفيق واحة ذات سكان لهم ميول خارجية". بعد الغزو أهلها اعتصموا بالجبال، وكانوا يظهرون الاشمئزاز من إجبارهم على التنصر. مئذنة المسجد القديم الآن حولت وصارت جزءا من حائط مقبرة، لذا لا نعرف من أي مادة بنيت.

بقايا هذه المباني ذات صلة دون شك بالأفكار التي يوردها لنا المقري في **نفح الطيب**، بالضبط في سيرة أبي البركات عند حديثه عن أحد أجداده المشهورين، جده العظيم أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج، المولود في بلفيق، والذي عاش ما بين سنة ٥٥٣- ٦١٦هـ/١١٢٨- ١٢١٩م. إن أبا إسحاق الذي كان صوفيا صالحا، معروفا بالتقوى والزهد، يقول المقري: "حفر ثمانية عشر جبا في مواضع متقاربة، وبنى حوالي

عشرين مسجدا، والقسم الأعظم من سور حصن بلفيق، صنع كل ذلك من حر ماله" من المحتمل جدا أن تكون الأطلال الباقية هناك من الأعمال التي أنشأها الرجل الصالح، على الرغم من قوله: القسم الأعظم، من حائط الحصن، ربما كان فيه تحصين سابق، قد يكون حينما حصن المرينيون في بيشينا تلك المنطقة في مواضع[٢] قريبة، صنعوا هناك أيضًا رغم أننا ليس لدينا معلومات عن هذا. نعم أبو البركات نفسه بعد مرور سنوات اشترك في بناء هذه الآثار وأصلحها، وهو أمر لانقدر على توكيده، غير أن المقري أورد بعض أشعار أبي البركات التي لا تستبعد هذه الفرصة، يقول في هذه الأبيات:

في احتفار الأساس والآبار ... وانتقال التراب والجيار
وقعودي بين رمل وآجر ... وجص والطوب والأحجار
وامتهاني بردتي بالطين والماء ... وراسي ولحيتي بالغبار
نشوة لم تمر قط على قلب ... خليع وما لها من خمار
من غريب البناء أن بانيه ... متعبون يهوون طول النهار
يبتغون الوصال من صانعيه ... والبدار إليه كل البدار
فإذا حل في ذراهم تراهم ... يشتهون منه بعيد المزار
من عذيري من لائم في بنائي ... وهو لي الترجمان عن أخباري
ليس يدري معناه من ليس يدري ... أن ما عنده على مقدار
أقتدي بالذي يقول بناها ... ذلك الخالق الحكيم الباري
وبمن يرفع القواعد من بيـ ... ـت عتيق للحج والزوار
وبمن كان ذا جدار وقد كان ... أبوه من صالحي الأبرار
وبما قد أقامه الخضر المخـ ... ـصوص علما بباطن الأسرار
كان تحت الجدار كنز وما أد ... راك ما كان تحت كنز الجدار
فالذي قد بنوه نبني له مثـ ... ـلا ونجري له على مضمار
قد بنينا من المساجد دهرا ... ثم نبني لجارها خير جار
مثلما قد بنيت للمجد أمثا ... ل مبانيهم بكل اعتبار

٢- بعض هذه التحصينات كانت في بني طارق والحامة ونيخر وبرشا. ليفي بروفنسال، **تاريخ أسبانيا**، ج ٤، ص ٢٢٣.

فالمباني لسان حالي ولي فيـ ـها لعمري ذكر من الأذكار
روح أعمالنا المقاصد لكن حيث تخفى تخفى مع الأعذار
فعسى من قضى ببنيان هذي الـ ـدار يقضي لنا بعقبى الدار[٣]

إن سلف أبي البركات، سيدي أبو إسحاق إبراهيم ، شخص نبيل في الحقيقة، قضى معظم حياته في المرية، ونال شهرة بالصلاح والبركة حتى صار مبجلا لدى العامة، حكى لنا المقري كثيرا من مناقبه، نقلها عن كتاب ابن خاتمة **مزية المرية**، وهو مفقود، وبها تظهر تقواه الخاشعة، وازدراؤه للدنيا شديد.

حفيد أبي البركات والذي يوقره توقيرا شديدا يقول إنه سمع من بعض شيوخه أنهم اجتمعوا أربعين ألفا من التلاميذ، وأنه قد افتتح المجلس في المرية بهذا الابتهال: "اللهم اجعلنا في عياذ منك منيع، وحصن حصين، وولاية جميلة، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين، مبشرين برضوانك يوم لقائك"[٤].

يقول أيضا واصفا ما ينبغي أن يكون عليه الصوفي: "الصوفي عبارة عن رجل عدل تقي، صالح زاهد، غير منتسب لسبب من الأسباب، ولا مخل لأدب من الآداب، قد عرف شأنه وزمانه، وملكت مكارم الأخلاق عنانه، لا ينتصر لنفسه، ولا يفكر في غده وأمسه، العلم خليله، والقرآن دليله، والحق حفيظه ووكيله، نظره إلى الخلق بالرحمة، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة[٥].

ابن الأبار وأحمد بابا التمبكتي في الترجمة التي خصصاها لأبي إسحاق أكدا كراماته. كلاهما روى سيرته وشهرته التي حظي بها في المرية متفقين مع المقري، ومضيفين بعض المناقب زيادة، وهي التي صيرته ذائع الصيت مثل شفاء طفل يعاني من الحساب في حضور طبيب أراد أن يسخر منه، وتركه خجلا.

إن كليهما (ابن الأبار وأحمد بابا) حكى كيف نفي أبو إسحاق من المرية، صيته كان عريضا جدا، امتد عبر المقاطعة كلها، وإن الناس كانوا يفدون إليه من كل ناحية، وهذا أثار بعض الفقهاء الحقودين فاشتكوه لسلطان مراكش المستنصر، قائلين له: إنه رجل خطير، يضم إليه ناسا كثيرين، فكتب إلى حاكم المرية قائلا له: أرسل إلي أبا إسحاق مع وافر التكريم.

دعا حاكم المرية أبا إسحاق، وأخبره أن السلطان أمره أن يسير إلى مراكش، اجتمع مريدوه معه وقالوا له: لا تذهب، ليس له سلطان عليك، غير أنه أجابهم بقوله: ليس من الجائز أن أعصي السلطان،

٣- المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٤٧٢- ٤٧٣.

٤- المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٧.

٥- المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٧-٤٧٨.

ولعلي أموت في المنفى.

حمل إلى أفريقيا، وعندما دخل على السلطان المستنصر عامله أحسن معاملة، وندم على استدعائه، وطلب منه الدعاء، وكان أبو إسحاق بعدها جديرا بالتوقير والتشريف.

بعد مضي شهر مرض وتوفي ليلة الأربعاء أول جمادى الآخرة سنة ٦١٦هـ = الرابع عشر من أغسطس سنة ١٢١٩م، عن عمر ثلاثة وستين عاما، وازدحم الناس في جنازته، الأمراء والوجهاء، وأهل القرية، وحملوا النعش على أكتافهم، ودفن في مراكش، وقبره صار مكانا مباركا مشهورا.

بجانب هذه المعلومات التي ساقها لنا التمبكتي، تضاف معلومات أخرى أكثر إثارة في كتاب **الاستقصا** الذي يقول: "إن الناس حطموا الخشبة التي بها جسده محمولا ليحتفظوا بأجزاء منها كآثار طيبة. قبره معروف في مراكش، وهو موجود في موضع يسمى سوق الدقيق، وقريبا منه مسجد ينسب إليه، يسمونه مسجد سيدي إسحاق بدلا من سيدي أبي إسحاق كما يجب أن يكون".

وتسابق مترجموه إلى القول: إن الذين اشتكوه عاقبهم الله بالموت المفاجئ الأليم. غير أنهم صمتوا فلم يذكروا أسماء أولئك الفقهاء الذين جلبوا الأذى لأبي إسحاق.

إن المشابهة مدهشة بين حياته وموته وحياة الرجل الصالح الصوفي وموته، وهو ابن العريف الذي هو من المرية أيضًا.

لا نعرف أن أبا إسحاق قد مات مثل موت ابن العريف مسموما، لكن هناك شكا عميقا في موته، لأنه حدث بعد وصوله إلى مراكش بشهر، واسمه اشتهر كما تشتهر أسماء الصالحين، وجميع مناقبه يسردها أبو البركات في كتاب، ولكنه لم يصل إلينا.

كذلك فإن خبرا أخيرا عن هذا الصوفي الشهير، يحكيه لنا ابن الخطيب عن المنافسة التي كانت في المرية بين أناس عظماء مختلفين للزواج من عائشة بنت أبي إسحاق ذات المواهب المتعددة، أخيرا تزوجت محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي، وكنيته أبو بكر، وأصله من شلب واستوطن المرية، وصار مريدا لأبي إسحاق. محمد بن مفضل هذا كان أحد المستشارين لأول ملك نصري، محمد الأول ملك غرناطة، وفي النهاية رحل إلى سبتة وأقام بها، وفيها توفي في الأول من جمادى الآخرة عام ٦٤٥هـ، الثالث من ديسمبر عام ١٢٤٧م.

كان أبو إسحاق شاعرا كذلك، أورد لنا المقري قصيدتين طويلتين من الشعر الصوفي الذي نظمه، وبعض الأبيات التي وجهها إلى ابنه محمد الذي كان يدرس في أشبيلية، ولا نجد لها مصدرا آخر غير هذا

المصدر، وتلميح آخر للمقري عن واحدة من نشواته الصوفية وفيها نسي كل شيء حتى ابنه، يقول في شعره الذي أرسله إلى إشبيلية:

إذا شئت أن تحظى بوصلي وقربتي فاجنب قرين السوء واصرم حباله

وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها وحصل علوم الدين واعرف رجاله[٦]

لقد ذكر لنا ابن الأبار في ترجمته أسماء شيوخه: أبو محمد البسطي، وأبو القاسم البراق، وأبو عبدالله بن الغزال، وأبو الحسن بن الكوثر، وابن العروس، وعبدالمؤمن الجزاري، وأبو جعفر بن عميرة، وأبو خالد بن رفاعة، وأبو جعفر بن حكم، وأبو بكر بن ذي النون،... الخ.

لاشك أن أبا إسحاق كان أحد الصوفية المشاهير، ربما كان أحد أتباع ابن مسرة، إذ كان لابن مسرة مكان في المرية، وقد اضطروا إلى إخفاء أفكارهم ونظرياتهم.

أشار ابن الخطيب بصفته مصدرا إلى الفهارس لدراسة حياته، وهي فهرس أبي بكر صهيب، وفهرسة ابن عمه، وفهرسة أبي إسحاق عبدالمجيد المالقي، وفهرسة ابن الأبار وفهرسة ابن طلحة، وفهرسة ابن فرحون، وفهرسة ابن صاحب الصلاة، وفهرسة ابن الزبير، وفهرسة ابن عبد الملك.

نتابع سلسلة أسلاف أبي البركات المشاهير، منتقلين من جده في خط تنازلي، نحن نعرف الجد الأعلى والجد إبراهيم معرفة قليلة، وأخبار موجزة. الأخبار الوحيدة الخاصة بالأول هي التي ذكرنا فيما سبق، فأما أخبار الثاني أو جده فنعرف من طريق ابن الخطيب، أنه كان عالما وصوفيا ذائع الصيت، وكان شيخ ابنه محمد الذي حصل منه على إجازة. لدينا معلومات دقيقة، عن محمد هذا والد أبي البركات، فقد وجدنا ترجمتين جديرتين في رأيي بالإثبات، إحداهما أوردها ابن القاضي، والأخرى أكثر تشويقا لما تحمله من معارف، وهي التي ذكرها ابن الخطيب في **الإحاطة**[٧].

عبر أبو بكر محمد إلى الأندلس، واتجه إلى المرية مقر سلفه، ليتجول في بلاده، وليرى أملاكه هناك، ثم اتجه إلى غرناطة ليلقى أمير المؤمنين (في تلك الحقبة كان محمد بن يوسف)، هذا الأمير لم يستقبله ولكنه بعث وزيره إليه، وسأله ماذا يريد؟ وعندما رأى أن السلطان لا يستقبله، أخبره أنه لا يريد شيئًا، وانصرف. ولما كانت الأندلس واقعة تحت ضغط النصارى المستمر، فإن أبا بكر عندما رأى أن السلطان محمد الأول بن يوسف لا يختلف عن غيره، قرر أن يعمل لنفسه، انطلق إلى سلطان بني مرين أبي يوسف، وشرح له الموقف

٦- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٧٦.

٧- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٠١.

بعبارات بليغة، فهمها سريعا أبو يوسف، فسار نحو مضيق جبل طارق، وعبر إلى الأندلس في الوقت الذي أراده، هذا الاجتياح الواقع تاريخيا يحدثنا عنه ابن الخطيب دون تفصيل لما جرى، من الصعب قبول لأن أبا يوسف اجتاح الأندلس عدة مرات وكان عبوره الأول سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، عندما وصلت قواته إلى حصن المدور، مخترقة حقول قرطبة وإشبيلية، وحاصرت إستجة. وكان الاجتياح الثاني سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، في حملة على شريش وإشبيلية. والاجتياح الأخير كان عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م وعام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م. يبدو أن هذا الخبر فيه غموض في أول عبور لأبي يوسف، لأنه لم يتحدث عن اجتياحات سابقة، ولكنه يحملنا إلى الشك في شباب أبي بكر محمد في تلك اللحظة، ففي سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، أخذا في الاعتبار تاريخ ميلاده، كان له ثمانية وعشرون عاما، علاوة على ذلك فإن نص **الإحاطة** يقول: "كان أبو يوسف يقول: دائما يأتي رجل مخلص ليزورنا فتهتز يده في يدي عند المصافحة إلا محمدا، فإن ما يحدث هو الضد، يدي هي التي تضطرب"، هذا يجعلنا نقرر أنه لا يمكن أن يكون شابا ابن ثمانية عشر عاما، ومن الجائز أن ابن الخطيب يشير إلى اجتياح أتى فيما بعد، وإن لم يفصح عن ذلك ابن الخطيب نفسه. وابن الخطيب يذكر لنا سبب هذا التدخل الشخصي لدى السلطان المريني، لأنه لم يجد قبولا عند ملك غرناطة، وكانت صودرت أمواله وأملاكه الخاصة، هذه المصادرة استمرت طوال حكم محمد الأول، وعندما خلفه ابنه محمد الثاني، أعاد له أملاكه، وعاقب من اشتكوه، ومع أن شهرته بالصلاح لم تكن كبيرة مثل أبي إسحاق، فإنه سار في طريقه المستقيم، وكان الناس يوقرونه. أورد ابن الخطيب إحدى كراماته المشهورة التي جعلته ذائع الصيت في سبتة، أخذها كذلك من ابنه أبي البركات، يبدو أن أبا محمد في عزلته وتركه للدنيا كان يلجأ كثيرا إلى الجبال والأماكن النائية عن سبتة. في ذات مرة كان في كهف مطل على الوادي، وطلب الناس منه المساعدة، وكان أسد قطع الطريق ولم يستطع أحد المرور فيه، حينئذ خرج أبو محمد، وأخذ معه عصاه واتجه نحو الأسد وتكلم معه، وأمره بالذهاب بعيدا، وهكذا فعل الأسد، ولم يعد يؤذي الناس.

توفي محمد في سبتة عام ٦٩٤هـ في آخر يوم من رمضان ١٥ مايو ١٢٩٥م، ودفن في مقبرة الخروبة، قريبا من قبر الرجل الصالح "ريحان الأسود".

نعرف من طريق ابن القاضي أنه ألّف كتابا هو **المناقب في فضائل الأولياء** وأنه كان شاعرا أيضًا.

إن ابنا لمحمد هذا، وهو أخو أبي البركات، كان مؤلفا لكتاب **المقتضب** من كتاب **تحفة القادم**، وكان يسمى أبا إسحاق إبراهيم البلفيقي. لا نعرف عنه شيئًا إلا أنه وضع هذا الكتاب، وقد نشره الأستاذ إبراهيم الإبياري في القاهرة سنة ١٩٥٧م.

هؤلاء هم السلف المشهورون لأبي البركات، وبفضلهم وصلاحهم نالوا شهرة، وصيتا ذائعا في الأندلس، وأما هذا الشخص الموضوع الأساسي لهذه الدراسة، فقد ولد طبقا لما قال ابن حجر العسقلاني في عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٤م، وابن حجر هو الوحيد من بين من ترجموا له، الذي أخبرنا بتاريخ ميلاده، وهي سنة لا تبدو محتملة، ثم توفي عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، لا نعرف إذا كان في بلفيق أو في المرية، حيث تعلم وقضى سني شبابه.

يقول ابن الخطيب: "نشأ بالمرية، وكان عماد العفة، وكان رجلا لطيفا، زاهدا، قانعا بما لا غنى عنه للعيش، لم ير إلا في بيت ناس محتاجين إليه، أو بصحبة شيوخه، أو في رحلاته، أو في أحد المساجد خارج المدينة، وكانت عديدة، ليعبد الله، لم يكن يتردد على الأسواق ولا الحفلات ولا الولائم، ولا مجلس حاكم ولا وال، ولم يختلط أيضًا في شؤون مما كان الناس يشاركون فيها، كان يحب السياحة، وكان يسأل عن العلماء في كل بلد عربي، حتى بجاية، ويسأل كذلك عن الصالحين برغبة عارمة في التعلم".

ومع أن الأخبار عن أبي البركات لم تقتصر على حقبة محددة في حياته، فإنه هو نفسه قرر عندما كانوا يسألونه عن إقامته، أنه لا يقيم، ويظهر أنه رحل كثيرا في شبابه في شمال أفريقيا، حيث درس وتلقى العلم على يد شيوخ فضلاء.

أول خبر عن عمل أبي البركات يسوقه إلينا ابن الخطيب بقوله: إنه عيّن قاضيا سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م في جوبليس، وابن القاضي ذكر تلك البلدة، غير أنه جعل التاريخ في ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، ثم صار قاضيا لمربلة وإسطبونة، وفي سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، انتقل إلى بجاية حيث قضى بضع سنين، وحظي بالاجتماع مع أبي علي المنصور بن عبدالحق المشدالي. وكذلك رحل إلى مراكش وسبتة متابعا لأثر سلفه، الذين كان يوقرهم لصلاحهم. وطبقا لما قاله ابن الخطيب: ذهب إلى سبتة حيث جمع ديوان شعره في ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥هـ.

وبعد رجوعه من بجاية استقر في مالقة في وظيفة مقرئ للقرآن الكريم. وقد تميز بمناقشاته حول **صحيح مسلم**، وبصداقته مع الأستاذ الوالي أبي عبدالله الطنجالي، وقد روى عنه كتبه في معظمها، ثم رحل إلى مدينة فاس، وعاد إلى المرية، وفيها عين مقرئا في جامعها، وفي عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤- ١٣٣٥م، صار قاضيا بمدينة مالقة بدلا من القاضي ابن منذر، الذي أقيل من منصبه، والذي توفي بعد مدة قصيرة، تجول أبو البركات في أماكن عديدة في مالقة، وطلب منه الخطبة في كثير من القرى.

منذ ذلك الوقت الذي عين فيه قاضيا بمالقة حتى أصبح قاضيا في غرناطة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، يمكننا فقط أن نتتبع حياته تحديدا من خلال بعض أشعاره التي حفظها لنا ابن الخطيب وابن خاتمة، نعلم من هذا الأخير أنه في شهر جمادى الأولى سنة ٧٣٩هـ/ نوفمبر ١٣٣٨م، أراد أن يرحل إلى المشرق، ولكن بعض أشعار ابن خاتمة، وهو تلميذه ثنته عن ذلك، وأنقذت حياته كذلك، فقد غرقت السفينة.

بعض أبياته أرخها ابن الخطيب بسنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، تبدي لنا أبا البركات يتجول في منطقة أندرش وبرجه بصحبة الرجل المشهور أبي القاسم محمد بن محمد الشريف الغرناطي.

أما توظيفه قاضيا في المرية وغرناطة، فإن الأخبار مضطربة قليلا، يقول ابن الخطيب، إنه في رجب سنة ٧٤٧هـ/ أكتوبر سنة ١٣٤٦م، عين قاضيا في المرية حالا محل أبي عبدالله محمد بن لب، المعروف بابن الصائغ، غير أنه في العشرين من شعبان من العام نفسه، ٤ يناير ١٣٤٧م رحل عن غرناطة، خلال حكم يوسف بن إسماعيل بن فرج، وقعد مكانه أبو القاسم محمد بن محمد الحسني السبتي الشريف الغرناطي، وهو الذي حل محله أبو البركات عندما ترك عمله لمدة سنتين، بعد وفاة أبي القاسم عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م، قعد مكانه أبو البركات من جديد.

عندما صار قاضيا لغرناطة، وهناك رحب به العلماء وكرموه في العاصمة، واستضيف في قصر الحمراء، والجميع كانوا يريدون الحديث معه، ويرغبون في تلقي العلم عنه، ويسألونه للإفادة. ويظهر في أول يوم اعتلى فيه المنبر للخطبة، دعا، فاستجاب له ربه، فنزل المطر بعد زمن من الجفاف والقحط الذي ضرب المنطقة، استجيب لهذا الدعاء بالمطر المفيد النافع.

ومع أن ابن الخطيب والنباهي لم يقولا كلمة عن هذه المسألة، فإنهما يلمحان إلى أن شيئا مثل ذلك حدث مع القاضي أبي البركات أثناء هذه المدة الأولى التي كان فيها بغرناطة خطيبا وقاضيا، يقول ابن الخطيب: "لقد أدى واجبه أداء حسنا، وصار في وعظه على نهج متميز، وكانت بلاغته وخطبه لا مثيل لها، وكان يفهم القضايا اليسيرة والعسيرة على السواء، طريقته في القضاء كانت أحيانا قاسية، وأحيانا لينة، كان يشتد حينا ويلين أخرى.

شدته وقوته وعدله جلبت له عدم الرضا، فأجبر على الاستقالة من عمله في غرناطة. هذا الموقف جعله يشعر بمرارة عنيفة، خاصة خيبة الأمل في الحياة، وشكه في حالة الإنسان بدا في بعض شعره أثناء ذلك العصر، ظهر بلا شك في أيام غرناطة عندما أقيل من عمله في المرية، واعتمادا على اعترافه هو نفسه، لأن الوباء (وباء الطاعون) الذي اجتاح المرية خاصة في سنوات ٧٤٩-٧٥٠هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٠م، وهو يعاني

مرارة الخيبة من إقامته في غرناطة في البلاط النصري، من تلك اللحظة جاءت الأشعار التي نظمها، محاكيا كتابات أخرى ألفها أبو المطرف بن عميرة في مناسبات مشابهة:

قد نسبنا إلى الكتابة يوما ثم جاءت خطة القضاء تليها
وبكل لم نطق للمجد إلا منزلا نابيا وعرشا كريها
نسبة بدلت فلم تتغير مثل ما يزعم المهندس فيها[٨]

ظل أبو البركات في المرية عدة سنين شاعرا بالخيبة ومنعزلا عن العالم. نحن نعلم أن ابن بطوطة أثناء أعوام ٧٥١ـ٧٥٣هـ/ ١٣٥١ـ١٣٥٢م كان في غرناطة، وأنه التقى هناك بأدباء عظماء مختلفين من الأندلس، مثل أبي عبدالله بن عاصم، وأبي القاسم محمد السبتي الشريف الغرناطي، وابن جزي، وأبي جعفر أحمد بن رضوان الجذامي، وقد رحل أبو البركات من المرية إلى غرناطة ليكون في هذا الاجتماع.

وعلى الرغم من نكساته وخلافاته الناتجة عن استقامته الشخصية، فإن أبا البركات كان موقرا ومعززا لدى علية القوم. يروي لنا ابن خلدون أنه في ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، بعث أبو البركات في سفارة من سلطان غرناطة إلى فاس، ولم يذكر ابن خلدون سبب هذه السفارة أو الغرض منها. يقول فحسب في هذه المناسبة: جلس في مسجد القرويين حيث استمعوا لدروسه، وأخذوا عنه الإجازة، وربما يشير ابن خلدون إلى هذه الرحلة عينها دون أن يحدد التاريخ، حينما أثبت أنه سمع شرح أبي البركات لكتاب البخاري في فاس قريبا من "الرجل ذي الرجلين القصيرين".

إن صلاته بالبلاط المريني كانت دقيقة، وصلاته للملوك كانت متكررة. نعرف كذلك أنه في مناسبة أخرى أثناء حكم أبي عنان، كان أبو البركات في بلاطه، وسأله عن سنه ـ تبعا لمالك بن أنس ـ أجاب ليس من المطلوب أن يجيب المرء عن عمره، وقد غير الأمير الأمر، وسأله عن الرحلات التي رحلها، وعن المدة التي كان فيها في بجاية. غير أن أبا البركات غضب، وقال له: "تريد أن تأخذني" ومضى، وحكاية مشابهة نجدها في كتاب **النيل** وإن لم تقل لنا من الذي سأل أبا البركات عن سنه، وهي شيء مماثل جدا. وهو عندئذ ووفقا لعادته في عدم الحديث عن سنه، أجاب بهذه الأبيات:

٨- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٤٧.

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سن ومال إن سئلت ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بحاسد ومكفر ومكذب[٩]

لقد سار على منهج مالك بن أنس الذي لم يكن يعلن عن سنه: "لا ينبغي أن يعلن ـ كما يقول مالك ـ عن السن بأية حال، إذا كنت شابا استصغروك، وإن كنت شيخا يظنون أنه لا فائدة منك".

وعن سفرة أخرى لأبي البركات تجاه بلاط بني مرين، يخبرنا ابن خلدون. انطلقت هذه الرحلة التي كانت في عام ٧٥٧هـ/ ١٣٤٦م، إبان ولاية أبي عنان نفسه، وقد حددت للصحبة إلى فاس مع أبي القاسم الشريف الغرناطي، وجد صاحب **نفح الطيب** أبي عبدالله محمد المقري، الذي كان قاضي الجماعة، وكان عالما وفقيها مشاورا محترما، تمتع بصحبة أبي عنان وفضله، نشأ خلاف بلا شك بينهما، والمقري أقيل سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، وأرسل إلى الأندلس مع سفارة، وكما أنه لم يكن ليعود إلى فاس أغضب هذا أبا عنان الذي لام محمد الخامس بعنف، والذي وقفه في الأندلس، وأمره بالعودة، هكذا صنع سلطان غرناطة، مع ضمان أنه لن يحدث له شيء، وأرسله مع جماعة من أهل غرناطة بينهم قاضيان: أبو البركات والشريف الغرناطي، وهما اللذان كان يرغب أبو عنان رغبة عارمة في أن يكونا موجودين في بلاطه. وقد قبلت سفارته، وعفي عن المقري.

أخذ المقري خبرا من ابن الصباغ مفاده أن أبا البركات عند وفاة أبي عنان سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م، اتجه إلى فاس للتعزية وتهنئة خلفه، أبي بكر السعيد، ألفى القصر حزينا وكل الأمراء والأعيان حاضرين، وعند رؤيته لهذا الجمع، والملك الشاب في مقعد أبيه أنشد بعض الأبيات ذات إشارات وتوريات بلاغية، وهي كما يرى المقري كانت السبب في موته.

نعرف عن طريق ابن الخطيب أنه في عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م، آخر شهر شعبان، وعند موت أبي القاسم محمد السبتي الشريف الغرناطي، شغل أبو البركات مكانه، وحظي لدى الملك الذي كان يطلب مشورته ونصائحه.

يقول ابن خلدون: "لقيته عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، في مدينة فاس حين دعاه السلطان أبو سالم بن السلطان أبي الحسن ليتعلم منه، وكنت أنا القارئ لما كان يشرحه، قرأت معه بداية **الموطأ**، وأجازني مرة أخرى.

٩- أحمد بابا التمبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم: عبدالله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ٢٠٠٠م، ص٤٢٨-٤٣٠.

الخبر الأخير الذي لدينا عن وظائفه السياسية مشكوك فيه كثيرا، نلقاه في **الإحاطة**، وأنبأنا به ابن الخطيب، وهو مع أنه مدحه وأثنى عليه ثناء جميلا، وأن تقديره له كان مشهورا، وعلى الرغم من إشارات واضحة بالاقتباس عنه بصفته قاضيا للملك الأحمر "البرميخو" ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م. يقول نصا: "شيخنا أبو البركات اغتر بباطل الدنيا على مر السنين والعقوبات رحمه الله وهداه إلى الصراط المستقيم.

ابن الخطيب هو الوحيد من بين الذين ترجموا له، الذي أورد هنا الخبر، وهو مؤلم له رغم تبجيله لأستاذه، وولائه لمحمد الخامس.

أخيرا رجع أبو البركات إلى وطنه، المرية، وصار قاضيا وخطيبا فيها، وتوفي طبقا لبعض الروايات التي ذكرها مترجموه في عام ٧٧١هـ/ ١٣٦٦م، وبعضهم يقول: مات سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، عن تسعين عاما تقريبا.

أما سمعته وشهرته بصفته سلطة قانونية فلدينا شهادة حملها لنا الونشريشي، استفتى أبو البركات عن جواز وجود زاوية بناها الأجانب في محلة قنالش يقول نص المعيار: "سئل الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقي عن زاوية للأجانب "الغرباء" فيها يجتمعون ليأكلوا ويتحدثوا ويصلوا، ويتلوا آيات من القرآن، ويصنعوا ما يشتهون بطرق مختلفة، أجاب أبو البركات، سبحان الله، الحمدلله الذي أعاننا على كل ما يرضيه، إذا كان الأمر كما قلتم لي فإنها العادة على جانبي المضيق (أي: في الأندلس والمغرب) وهي شيء مباح للصدقات التي تجري على الزوايا، والفوائد التي تتم فيها، وهي علاوة على ذلك ملجأ للمسافرين، قاله وكتبه أبو البركات محمد بن إبراهيم بن الحاج، وأفتاه بسلطته الأستاذ شيخ الجماعة أبو سعيد فرج بن لب بهذه الكلمات: "تمعنت في السؤال والجواب، وأنا موافق على نص هذا العالم. قاله أبو سعيد فرج بن لب. حامدا الله ومصليا على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

عندما وصل الجواب إلى أهل قنالش، بدا لهم غير جيد، وقالوا: "لقد فتحتم بابا لا نستطيع إغلاقه، وسنشكوكم أمام القضاء، للضرر الذي ألحقتموه بالناس بهذا" فأجابهم أبو البركات بهذه الكلمات: "اعتمدت على كتابكم، ووجدت فيه كلمات غير منضبطة، وهي مخالفة لما قلتموه لي. وأدهشتني شكواكم بدون داع، وعداوتكم على غير أساس، حينما قلتم إنهم يجتمعون هناك بنساء، ويرتكبون أعمالا محرمة، ويختلطون بغلمان من طبقة وضيعة، والذي سألتموني عنه ليس فيه أية كلمة عن ذلك، وأنا عندما أجبت عنه لم أكن أعرف هذه الاعتداءات، وعدلت الفتوى على السؤال". لم يذكر لنا الونشريشي تاريخ هذا الحدث.

أساتذة أبي البركات

على أساس القائمة التي ذكرها لنا مترجموه، والتي سبق إيرادها، فإن أبا البركات الرحالة الذي لا يمل البحث عن العلم، تلقى في كثير من المدن والبلاد التي زارها عن الشيوخ المشهورين، أو الأكثر شهرة، هكذا نجد من بينهم شخصيات عظيمة كانوا يعيشون في غرناطة ومالقة والمرية، أو شمال أفريقيا، خاصة في بجاية وفاس ومراكش وسبتة. أكثر هؤلاء هم فقهاء متقنون، وصوفيون، وأدباء وشعراء.

سأذكر أولئك الذين استطعت أن أحققهم، ثم أذكر الباقين:

١- علي بن أحمد بن أبي العيش الأنصاري (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، قاضي المرية، حيث تولى القضاء بعد استيلاء النصارى على مرسية في نهاية عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م بدلا من القاضي ابن فركون عندما أقيل.

٢- أحمد بن إبراهيم بن الزبير أبو جعفر (٦٢٧-٧٠٨هـ/ ١٢٢٩-١٣٠٨م) ولد في جيان، كان قاضي المناكح والخطب في غرناطة، وبها توفي.

٣- أحمد بن محمد بن فركون القرشي أبو جعفر (٦٤٩-٧٢٩هـ/ ١٢٥١-١٣٢٨م) قاضي رندة وقاضي الجماعة في غرناطة إبان عهد محمد الثالث، ونصر، ملكي غرناطة. وقد أقيل سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م في بداية حكم السلطان أبي الوليد إسماعيل، ثم عين قاضيا بالمرية، ثم أقيل من وظائفه أيضًا، وسجن في نهاية شهر صفر عام ٧٢٩هـ/ يناير ١٣٣٩م، كان فقيها وشاعرا وأديبا، وبناء على قول ابن الخطيب الذي ينقده بعنف، كان سيِّئ القول، كثير النقد ساخرا، وكان ذلك سببا لمصيبته.

٤- أبو عبدالله بن رشيد عاش من سنة (٦٥٧-٧٢١هـ/ ١٢٥٩-١٣٢١م)، كان خطيب مسجد غرناطة في عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م، وهو مؤلف رحلة، مات في فاس.

٥- علي بن عمر بن إبراهيم القيجاطي، أبو الحسن (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، كان أديبا لوذعيا، ولاذعا، وخطيبا، ومقرئا في غرناطة.

٦- محمد بن يحيى بن بكر الأشعري (٦٧٣-٧٤١هـ/ ١٢٧٤-١٣٤٠م)، مالقي من عائلة كريمة، خطيب جامع غرناطة، وقاضي مالقة، وكان كذلك فقيها وأديبا، مشهورا بالشدة والعدل، وقد استشهد في موقعة طريف.

٧- إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاص التنوخي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، من جزيرة طريف، كان خطيبا وإماما وشاعرا، أقام في غرناطة مدة، وفي سبتة، وفي المرية.

٨- عبدالله بن علي بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن سلمون، المتوفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، تلميذ

الحضرمي الذي استشهد في معركة طريف.

٩- محمد بن أحمد بن داود الكماد، من أهل بلش، توفي ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، وكان فقيها زاهدا، وكان شاعرا ومقرئا في غرناطة.

١٠- محمد بن محمد بن الفخار الجذامي الأركشي، توفي ٧٢٣هـ/ ١٣١٤م، زاهد ومحدث وعند استيلاء النصارى على أركش خرج منها وتوجه إلى شريش، ومنها للسبب نفسه إلى الجزيرة، كتب كتبا كثيرة، منها كتاب لوم للمسلمين الذين كانوا يعيشون في بلاد النصارى وكتاب آخر عن تحريم الشطرنج.

١١- محمد بن محمد بن أحمد بن شلباطور الهاشمي، توفي سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، من أسرة نبيلة، كان أديبا من المرية، وقائدا لأسطول المنكب في حقبة من الزمن، مات في مراكش حيث كان يبحث عن حماية السلطان له.

١٢- إبراهيم بن أحمد بن عيسى الإشبيلي الغافقي، أبو إسحاق، توفي سنة (٧١٦هـ/ ١٣١٦م)، من أهل إشبيلية، مشهور بنسبته إلى القصر (قصر بدروتشس)، رحل عن إشبيلية عندما احتلها النصارى، وصار صوب سبتة، حيث توفي، وكان يشغل وظيفة قاض.

١٣- قاسم بن عبدالله بن محمد بن الشطي، أبو القاسم (٦٤٣-٧٢٣هـ/ ١٢٤٥-١٣٢٣م)، من سبتة، فقيه، مؤلف فهرسة، وكتب مختلفة.

١٤- محمد بن علي بن هاني، أبو عبدالله، توفي سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، فقيه محدث لغوي عالم مالكي من سبتة.

١٥- محمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي بن البناء العدادي، أبو العباس (٦٥٤- ٧٢٤هـ/ ١٢٥٦- ١٣٢٤م)، الكاتب المشهور والرياضي المراكشي.

١٦- محمد بن عمر بن محمد بن عمر الحميري الحجري الرعيني بن الخميس أبو عبدالله، توفي سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، الذي قضى جزءا كبيرا من حياته في تلمسان وسبتة مادحا للملوك، رحل إلى غرناطة في عام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م، مع الوزير ابن الحكيم، وقتل في اليوم نفسه الذي قتل فيه الوزير.

١٧- عبدالرحمن بن عفان الجزولي أبو زيد، توفي سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، مالكي مشهور، زاهد، مات لسقوطه من فوق الحصان، عندما كان ذاهبا للقاء السلطان المريني أبي الحسن عند رجوعه من موقعة طريف.

١٨- عبدالله بن محمد بن عبدالحق المشدالي، توفي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، كان له مجلس في بجاية، وفيه جلس أبو البركات.

١٩- محمد بن عبدالمؤمن بن محمد بن يوسف بن أحمد اليماني، أديب صوفي، كان صديقا لابن رشيد وابن الفارض في مصر.

سيرة أبي البركات فيها أساتذة آخرون لم أجد لهم ترجمة، هؤلاء هم: أبو جعفر اللورقي، وأبو الحسن عبيد الله بن منظور، وابن البناء الحمداني المالكي، وابن الحارث، وأبو بكر محمد بن أحمد بن خليل الشكوني، والحافظ سليمان القرطبي، وأبو جعفر بن مكنون... إلخ.

تلاميذ أبي البركات كانوا كثيرين جدا من معاصريه، سنذكر من المشهورين ابن الخطيب وابن زمرك، وأحمد ومحمد بن خاتمة وابن خلدون.

ميزاته الإنسانية وأعماله

من أشعاره التي أوردها مترجموه مثل بعض أبياته في الأمثال والحكايات، وردود الفعل على أحداث محددة مرت به في حياته، تبدو شخصية أبي البركات واضحة أتم الوضوح، فبجانب ميزاته الأخرى كان فقيها وصوفيا وأديبا، نجد فيه وفي أشعاره شيئًا يصعب العثور عليه لدى الشعراء العرب، وأكثر من ذلك لدى الشعراء المعاصرين له. أبو البركات وإن كان يستخدم الموضوعات الموجودة في عصره، ويتابع طريقة جيله في استعمال الصور البلاغية والإكثار منها، فإن كثيرا منها يعسر تفسيره، فيها شخصية لا تنكر، وأصالة وأناقة لا توجد في كثير من المناسبات اللطيفة. إن جماعة من مترجميه سجّلوا هذه الخصيصة الظريفة، وهذه السخرية بصفتها خصائص ومميزات مختلفة. في الحقيقة كان أبو البركات المثل الأعلى في الأندلس: ظريف ولطيف، وحاد وعنيد، وتقي.

كان له أصحاب صالحون، وكان يقدرهم لأقصى درجة من الصداقة الطيبة، غير أنه أحس بعدم راحة في وقت من الأوقات وفي وسط لم يكن يفهمه، كان قلقا ومضطربا، لعل هذه حالة من حالات الشخصيات التي تولت القضاء في أماكن عديدة، كان يرحل دائما، وكانت حياته مقسمة بين الأندلس وشمال أفريقيا، لقد لاموه على دوام ذهابه وإيابه، وقد رد على الذين لاموه بقوله:

قالوا لي: تغربت عن أهل وعن وطن — قلت لم يبق لي أهل ولا وطن
مضى الأحبة والأهلون كلهم — وليس لي بعدهم سكنى ولاسكن
أفرغت دمعي وحزني بعدهم فأنا — من بعد ذلك لا دمع ولا حزن[١٠]

١٠- **تاريخ قضاة الأندلس**، طبعة بيروت، ص ٧٣-٧٤.

على الرغم من كلماته فإن صحبته كانت مفيدة وعميقة، عنها يحدثنا ابن الخطيب بإعجاب وتوقير، كانت روحه ثائرة مستقلة متفردة، ولكنه كان يعرف كيف يقيم أصحابه دون شيء من الحقد، ربما كان أكثر من تدخل في حياته هم: الشريف الغرناطي، وأبو جعفر بن خاتمة، بالإضافة إلى ابن خلدون. اجتمع مع الأول في مناسبات عديدة مختلفة، يروي لنا المقري كيف تابعا جولاتهما معا في بلاد الأندلس حتى وصلا إلى قرية بنتاس دي بيثميليانا، وبعد رحلة طويلة في الحر، أرادا أن يستريحا، نزلا إلى الوادي وأكلا تينا، وشربا ماء عذبا، وناما في ظل شجرة، هنا أنشأ أبو البركات بيت شعر:

ماذا أقول فدتك النفس في حالي يفني زماني في حل وترحال

وأرتج عليه فأكمل أبو العباس الشعر:

كذا النفوس اللواتي العز يصحبها لا ترضى بمقام دون آمال
دعها تسر في الفيافي والقفار إلى أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال
الموت أهون من عيش لدى زمن يعلي اللئيم ويدني الأشرف العالي[١١]

صداقته لابن خاتمة كانت حميمة ومخلصة، أبو البركات كان أستاذه، وكان يوقره بأقصى عاطفته واحترامه، ينقل عنه أو يروى عنه، كأنه سلطة مطلقة، ويسير على نهجه في أشعاره وأسلوبه الأدبي، وكان أبو البركات كذلك يثني على مواهب ابن خاتمة. وقصائده جعلته يغير وجهته كما قلنا من قبل في موقف حملته على الكف عن رحلته، وصيرته متعجبا قائلا: "لن أرحل عن أرض يكتب فيها هذا الشعر". مرة أخرى عندما كان يجتمع جماعة من الأصحاب في حديقة ابن الخطيب، في عين الدمع، لم يرض أن يأكل مع الجماعة، يدعي أنه صائم، بعد انتهاء الوليمة، أرسل له ابن خاتمة أبياتا، وحينما همّ بالذهاب قال: "لو كان عرفها من قبل لترك الصيام لوقت آخر"[١٢].

دليل آخر على الصداقة بين أبي البركات وابن خاتمة نجدها في مقدمة **الواشي والرقيب والعذول**، فيها كتب ابن خاتمة راجيا من شيخه أن يقبل إهداءها له، وقد نشرت هذه الرسالة مع دراسة لها في **مجلة الأندلس**، مجلد ١٨، ص ١-١٦.

أحيانا كان ابن خاتمة يخفف من قسوة عباراته على المعاقبين، هكذا قال بمناسبة دخول امرأة الحمام

١١- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٧٩.

١٢- المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٨.

من غير خمار منتفعا بصورة بلاغية من التورية كانت موضع تقدير كبير من أساتذته.

يبدو أن هذه الصرامة مع ملابس النساء اللاتي يرجعن من الحمام، كانت شيئا طبيعيا منه، يروي لنا المقري أنه كان واقفا في مدخل بيته مع بعض أصدقائه، فأتت امرأته من الحمام الذي كان قريبا من دارهم، بدون سراويل فظهرت ساقها، فغض أبو البركات، ودخل مسرعا في بيته، ثم عاد وأنشد:

كشفت على ساق لها فرأيته متلألئا كالكوكب البراق

لا تعجبوا إن قام منه قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق[١٣]

في هذا البيت تورية من خلال المعنى المزدوج لكلمة قيامة، هما الغضب، ويوم القيامة مستعار من سورة القلم الآية ٤٢. وعن غضبه منها لفعلتها وجرأتها، نحن لا نعرف هل هي التي طلقها، فالنباهي يقرر أنه كانت لديه أربع نسوة، وكانت له بنت واحدة من جارية، ولكنه لم يذكر أسماء هؤلاء الزوجات.

إن المقري في حديثه عن طلاقه لزوجته، ذكر لنا خبرا عجيبا، يظهر لي أنه جدير بالإثبات، لأنه يشير إلى شخصية أبي البركات الساخرة، التي تسربت حتى في الوثائق الجادة جدا تتصل بموضوع الطلاق الذي كتبه بنفسه لتطليق إحدى زوجاته، يقول النص:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آل محمد، يقول عبدالله الراجي رحمته محمد المدعو بأبي البركات بن الحاج، خار الله له، ولطف به، إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة، وغرائز شتى، ففيهم السخي والبخيل، والشجاع والجبان، والغبي والفطن، والكيس والعاجز، والمسامح والمنافق، والمتكبر والمتواضع، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العشرة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين: إما الاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإما بصبر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك، ولما علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه من عيل صبره على صاحبه، توسعة عليهم، وإحسانا منه إليهم، فلأجل العمل على هذا طلق كاتب هذا عبدالله محمد المذكورة زوجته المرأة العربية المصونة عائشة بنت الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبي عبدالله محمد المغيلي طلقة واحدة ولكنها بها ملكت أمر نفسها دونه عارفا قدره، قصد بذلك إراحتها من عشرته، طالبا من الله أن يغني كلا من سعته، مشهدا بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء، أول يوم من شهر ربيع الثاني عام واحد وخمسين وسبعمائة"[١٤].

١٣- المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٨٧.

١٤- المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٩-٤٨٠.

في مناسبات أخرى أنشد شعرا يسخر من النساء بشدة:

ما رأيت النساء يصلحن إلا　　للذي يصلح الكنيف من أجله

فعلى هذه الشريطة صالحهن　　لا تعد بامرئ عن محله[١٥]

ويضيف أيضًا:

ما عسى أن يقال في هجوهن من　　قد خصه المصطفى بأقبح شيمة

أو يبقى لنا قصر العقل والدين　　إذا عدت المثالب قيمة[١٦]

وفقا لرواية ابن الخطيب فإنه قد كتب هذه الأبيات في سنة ٧٤٤هـ، أو قبل طلاقه لزوجته.

وعلى الرغم من نقده اللاذع كانت النساء أحيانا تقض مضجعه، ونحن نعرف من المقري أنه في السبت ٢٧ من شهر رجب عام ٧٤٥هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٣٣٤م، كتب هذه الأبيات عقب رؤيته في المنام أنه يتبع امرأة، ولم يسمح له بمواصلتها، لأن رقيبا كان يفصل بينهما، وأن أبا البركات قد ارتجل بيتين من الشعر:

ألا أكرم الله الرقيب فإنه　　كفاني أمورا لا يحل ارتكابها

وبالغ في سد الذريعة فاغتدى　　يلاحظني نوما ليغلق بابها[١٧]

من جولاته الشهيرة سجل ابن الخطيب وابن القاضي ما حدث له عندما وجد نفسه في حمام الخندق في المرية، وطبقا لما قاله الاثنان في ترجمتهما في يوم الجمعة الثامن من محرم عام ٧٣٢هـ/ أكتوبر ١٣٣١م، وظل وحده في الحمام، وانطفأ النور، فقال أبو البركات مشيرا إلى هذا الحدث:

"وبت بحمام الخندق من داخل المرية ليلة الجمعة، الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفردا، فطفئ المصباح، وبقيت مفكرا، فخطر ببالي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحاء والحمامات، وعدم دخول كافة الناس إلا ما شذ عن دخولها منفردين بالليل، لاسيما في الظلام، واستشعرت قوة في نفسي عند ذلك، أعراض وأوهام، فقلت مرتجلا، رافعا بذلك صوتي:

زعم الذين عقولهم قدرها　　إن عرضت للبيع غير ثمين

أن الرحا عندهم معمورة بالجن　　والحمام عندهم كذا بيقين

١٥- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٠.

١٦- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٠.

١٧- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨٠.

إن كان ما قالوه حقا فاحضروا للحرب هذا اليوم من صفين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة بأني مضارع قيس المجنون[١٨]

نعرف من ابن الخطيب أنه كان قصيرا، يقول: "كان رحمه الله أبعد خلق الله عن الحسد وأشدهم إقداما على الأسد، ونفس لا نسبة بينها وبين الجسد"[١٩] كان ذا صوت رخيم يوحي بالدموع، ونعرف أيضًا أنه كان ذا عينين زرقاوين، يقول عنهما في شعره:

حزنت عليك العين يا مغنى الهوى فالدمع منها بعد بعدك ما رقا
ولذاك ما ظهرت بلون أزرق أو ما ترى ثوب المآتم أزرقا[٢٠]

روى ابن الخطيب والمقري والقاضي قطعة شعرية له، وأجمعوا على جودتها، يصف فيها المجبنات:

ومصفرة الخدين مطوية الحشا على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف
لها بهجة كالشمس عند طلوعها ولكنها في الحين تغرب في الجوف[٢١]

كان أبو البركات عند باب طلحة في بلدة حنين عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، يبدو أنه أحس بدوار عند البحر، فأنشد حينها لأصحابه أبياته هذه:

رأسي به هوس جديد لا الذي تدريه من هوس قديم فيه
قد حل ما أبديه من هذا كما قد حل من ذاك الذي أخفيه[٢٢]

ويخبرنا ابن الخطيب أنه كان لأبي البركات كلب، كان يحبه، يسمى مثل اسم كلب فتية أهل الكهف "قطمير"، وأنشد هذه الأبيات بعد رحلة رحلها الاثنان معا من الحامة إلى المرية.

رحلت وقطمير كلبي رفيقي يؤنس قلبي بطول الطريق
فلما أنخت أناخ حذائي يلاحظني لحظ خل شفيق
ويرعى أذمة رفقي كما يتغنى الصديق للصديق
على حين قومي بني آدم بلؤمهم لم يوفوا حقوقي

١٨- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٠-١٦٢.
١٩- ابن خلدون، **الكتيبة الكامنة**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٨.
٢٠- المصدر السابق، ص ١٣٢، **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨٢-٤٨٣.
٢١- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٧٨.
٢٢- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦١.

ولا فرق بين الآباء منهم وبين أخ مستحب شفيق
أو ابن متى تلقه تلقه هوى اشتياق بقلب خفوق
فما منهم من ولي حميم ولا ذي إخاء صحيح حقيق
وناهيك ممن يفضل كلبا عليهم فيا ويلهم من رفيق
ألا من يرق لشيخ غريب أبي البركات الفتى البلفيقي[٢٣]

إحدى التعليقات التي تبرز سخرية أبي البركات، وارتباطه بالصور البلاغية في كل لحظة، يقصها علينا المقري، إن قاضي المرية أقيل، وحل محله قاض آخر يسمى أبا جعفر، كان مشهورا بقرعته، حضر إليه فلاح من المرية يشكو من أزمة سببها له القحط الذي ترك الأرض قرعاء قاحلة، قال الفلاح مشيرا إلى حقله، محدثا للقاضي: هذه القرعة تشهد على ما أصاب مزرعتي، عند سماع هذا الكلام تعجب أبو البركات: غريبتان في واحد، القرعة تقضي، والقرعة تشهد[٢٤].

أيضًا يحكي المقري أنه حدث خلاف بين ابن صفوان وأبي البركات دون أن يذكر علة ذلك، دافع عن أبي البركات بعض تلاميذه بكتاب كتبه عنوانه: "شواظ من نار ونحاس، يرسل على من لا يعرف قدره وقدر غيره من الناس"، واتسع في دفاعه، فكتب أبو البركات على ظهر الكتاب هذين البيتين:

قد شبع الكلب كما ينبغي من حجر صلد ومن مقرع
فإن يعد من بعد ذا للذي قد كان منه فهو ممن نعي[٢٥]

إن أكثر شعره الذي حفظ عنه ذو صبغة عامة مطبوعة، وفيه يتضح زهده وسخريته، وأحيانا حزنه وبؤسه.

ستترجم بعض هذه الأشعار تباعا

يقول عن حسرته على الناس، ومما نظمته عام خمسة وأربعين وسبعمئة:

قد كنت معذورا بعلمي وما أبث من وعظي بين البشر
من حيث قد أملت إصلاحهم بالوعظ والعلم فخان النظر
فلم أجد أوعظ للناس من أصوات وعاظ جلود البقر[٢٦]

٢٣- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٢-١٦٣.
٢٤- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨٠.
٢٥- المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٨.
٢٦- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦١.

وعن المواعظ والنصح يقول:

لا تبذلن نصيحة إلا لمن تلقى لنيل النصح منه قبولا
فالنصح إن وجد القبول فضيلة ويكون إن عدم القبول فضولا[٢٧]

ويقول عن نفسه:

وأين الخير من زماني وأهله على أنني للشر أول سابق
لحا الله دهرا قد تقدمت أهله فتلك لعمرالله إحدى البوائق[٢٨]

وعن قيمة الإنسان ينشد:

ما كل من شد على رأسه عمامة يحظى بسمت الوقار
ما قيمة المرء بأثوابه السر في السكان لا في الديار[٢٩]

وعن الابتعاد عن القلق ينظم هذه الأبيات:

ما رأيت الهموم تدخل إلا من دروب العيون والآذان
غض طرفا وسد سمعا ومهما تلق هما فلا تثق بضمان[٣٠]

وفي مناسبة أخرى يقول:

أبحث فيما أنا حصلته عند انغماض العين في جفنها
أحسبني كالشاة مجترة تمضغ ما يخرج من بطنها[٣١]

وعن الأسرار يقول:

إذا ما كتمت السر عمن أوده توهم أن الود غير حقيقي
ولم أخف عنه السر من ضن به ولكنني أخشى صديق صديقي[٣٢]

٢٧- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٨.
٢٨- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٣.
٢٩- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨١.
٣٠- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٥٩.
٣١- المصدر السابق.
٣٢- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨١.

ويضحك من تبدل الناس بقوله:

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أبيا لنائل ذي ثروة تراه بما في يديه أبيا[٣٣]

وله قصيدة أخرى أثنى عليها ابن خاتمة الذي قال: لو أن امرأ جاء من خراسان فقط من أجل هذين البيتين لكفاه من رحلته:

رعى الله إخوان الخيانة أنهم كفونا مؤونات البقاء على العهد
فلو قد وفوا كنا أسارى حقوقهم نراوح بين النسيئة والنقد[٣٤]

و يتحدث عن فراق عين الدمع (لعلها عين الدمع التي كانت ملكا لابن الخطيب).

ألا خل عين الدمع تهمي بمقلتي لفرقة عين الدمع وقف على الدم
فللماء فيه رنة شجنية كرنة مسلوب الفؤاد متيم
وللطير فيه نغمة موصلية تذكرني عهد الصبا المتقدم
وللحسن أقمار به يوسفية ترد إلى دين الهوى كل مسلم[٣٥]

روى ابن الخطيب بيتا عبقريا لأبي البركات، وقدم له بقوله: وقال يداعبني:

وعلى سبيل الكناية يخاطبني: ولقد لقيت رجلا ببلاد الهند يعرف بأبي البركات بن الحاج، وكان برد في بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمئة ١٣٤٣م:

قالوا أبو البركات جم ماؤه فغدا أبا البركات لا أبا البركات
قلنا لأن يكنى بموجوداته أولى من أن يكنى بمعدومات[٣٦]

وقال أبو البركات عن فوائد الأعداء:

جزى الله بالخير أعداءنا فموردهم أسنى للصدر
هم حملونا على العرف كرها وهم صرفونا عن المنكر

٣٣- **نيل الابتهاج**، ص ٤٢٩- ٤٣٠.
٣٤- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٠.
٣٥- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨١.
٣٦- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٠-١٦١.

وهم أقعدونا بمجلس حكم وهم بوؤونا ذرى المنبر
وهم صيرونا أئمة علم ودين وحسبك من مفخر
عدوي بأول فدى مأثم وإن جئت بالإثم لم يعذر*
وأنت تمحص من يعدل بين المسيء وبين البري
ولا زود الله أصحابنا بداء تقى ولا خير
هم جرؤونا على كل إثم وما كنت لولاهم بالمخبر
وعدوا من أكبر آثامنا فكانوا أضر من الفتر
أعارني القوم ثوب التقى وإني مما أعاروني بري
إذا خدعوني ولم ينصحوا وإني بالنصح منهم حري
فمن كان يكذب حال الرضا يصدق في غضب يفتري
بلى سوف تلقى لدى الحالتين يحكم النفس هوى القري
فيا رب أبق علينا عقولنا نبيع بها وبها نشتري[٣٧]

يؤكد ابن الخطيب أنه لم يسمع شيئا مثل هذا، ولا تكلم أحد إلا هو، وإن كان بعض الناس قلده بعد ذلك.

وقد نظم أبو البركات قصائد بليغة فريدة، فقد كان شاعرا زاهدا، وليس من السهل ترجمتها، وهي تشبه في بعض جوانبها القصائد التي نظمها في الموضوعات نفسها تلميذه ابن خاتمة، لنر واحدة منها رواها ابن الخطيب، وفيها يتضح شيء من سمات أسلوب الشاعر الصوفي ابن الفارض:

يأبى شجون حديثي الإفصاح إذ لا تقوم بشرحه الألواح
قالت صفية إذ مررت بها أفلا تنزل ساعة ترتاح
فأجبتها لولا الرقيب لكان لي ما تبتغي بعد الغدو رواح
قالت وهل في الحي حي مثلنا فاسمح فديتك فالسماح رباح
فأجبتها إن الرقيب هو الذي بيديه منا هذه الأرواح

* هكذا ورد الشطر الأول، ولعل الصواب: عدوي يئول إلى مأثم (المترجم).

٣٧- **الإحاطة**، ص ١٦٥-١٦٦.

وهو الشهيد على موارد عبده سيان ما الإخفاء والإفصاح
قالت وأين يكون وجود الله إذ تخشى ومنه هذه الأفراح
فافرح بإذن الله جل جلاله واشطح فنشوان الهوى شطاح
وانهج على ذمم الرجال ولا تخف فالحكم رحب والنوال مباح
وانزل على حكم السرور ولا تبل فالوقت صاف ما عليك جناح
واخلع عذارك في الخلاعة يا أخي باسم الذي دارت به الأقداح
وانظر إلى هذا النهار فسنه ضحكت ونور جبينه وضاح
أنواره ضحكت وأترع كأسه فقد استوى ريحانه والراح
وانظر إلى الدنيا بنظرة رحمة فجفاؤها بوفائها ينزاح
فأجبتها لو كنت تعلم ما الذي يبدو لتاركها وما يلتاح
ما كان معنى غامض من أجله قد ساح قوم في الجبال وتاحوا
حتى لو سكروا من الأمر الذي هاموا به عند العيان وساحوا
لعذرتني وعلمت أني طالب ما الزهد في الدنيا له مفتاح
فاترك صفيك قارعا باب الرضيا والله جل جلاله الفتاح
يا حي حي على الفلاح وخلني فجماعتي حثوا المطي وراحوا[٣٨]

فكرة الزهد في الدنيا ولذاتها نجدها تتردد لدى أبي البركات، وهي تختم بعض قصائده التي من هذا القبيل:

فافرح وطب وابهج وقل ما شئت ما أملح الفقراء يا ما أملحا[٣٩]

كان أبو البركات يصعد الجبال القاحلة والوعرة في المرية، ولكنه لم يجد فيها أبدالا كما كان الحال في أوقات أخرى.

هذه إحدى قصائده الرائعة التي نظمها يوم عرفة عام ٧٥٠هـ/ ١٠ نوفمبر ١٣٤٩م، عندما كان في كهف في جبل من جبال المرية:

٣٨- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٥٥-١٥٦.

٣٩- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٨.

زعموا أن في الجبال قوما صالحين قالوا من الأبدال
وادعوا أن كل من ساح فيها فسيلقاهم على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مرارا بنعال طورا ودون نعال
ما رأينا فيها سوى الأفاعي وشبا عقرب كمثل النبال
وسباعا يخترون بالليل عدوا لا تسلني عنهم بتلك الليالي
ولو كنا لدى العدوة الأخرى رأينا نواجذ الرئبال
وإذا أظلم الدجى جاء إبليس إلينا يزور طيف الخيال
هو كان الأنيس فيها ولولا ه أصيبت عقولنا بالخبال
خل عنك المحال يا من تعني ليس تلقى الرجال غير الرجال[٤٠]

أما نثر أبي البركات بعيدا عن الأخبار التاريخية المنثورة على طول الإحاطة، التي يظهر فيها اسمه، فقد احتفظ ابن الخطيب برسالة أرسلها إليه نموذجا للخطابة، تمثل ذوق عصره وبعض القطع المختلفة فيها مناقشات مع تلاميذه حول مسائل دينية. أيضا روى ابن الخطيب مقالة له ربما كان كتبها في شيخوخته، تنم عن شخصيته:

أيتها النفس إليه اذهبي فحبه المشهور من مذهبي
أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمسا من المغرب[٤١]

بل محلك أمثل من التمثيل بالشمس، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار شمسا، لأصبح جلها لك عباد، ولو كان نزولك مطرا لتكيفت الصخور ترابا دمثا، ولولا معرفتنا معشر إخوان الصفا بإقرار أنفسنا، لحكمنا بأن قلوبنا تمائم لأصدقائنا ولكن سبقت عيون السعادة بالكلات، فلو تصادف بالرضا محلا، لأن تحصيلا لحاصل محال، لازلت محروسا بعين الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، مكنوفا ببركة الذي يرومه رائم، والسلام[٤٢].

أشار المقري كما أشار ابن الخطيب إلى مواهب أبي البركات في التفسير، وكذلك ابن خلدون الذي

٤٠- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٥.
٤١- **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٤٨٢.
٤٢- **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٦٧-١٦٨.

يشعر بالفخر لأنه تلقى على يديه علمه[٤٣]. وأشار المقري أيضًا إلى السهولة لدى أبي البركات في الخطابة والتفسير، ذات مرة أمر أحد تلاميذه أن يفتح أي باب من **صحيح البخاري**، وقد جاء حديث عقبة بن عامر، وهو خاص بصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم على الموتى، حينئذ صعد المنبر للوعظ، وأخذ في شرحه للموضوع.

في مشهد آخر ناقش بعنف وإقناع رأيه في مجلس الإمام ناصر الدين المشدالي، حول مسألة أيهما أفضل الملائكة أم الرسل؟، أكد أبو البركات أن الملائكة أفضل، لأن الله أمرهم أن يسجدوا لآدم، وعند سماع هذا الرأي نظر الحاضرون بعضهم لبعض، حتى قال أحدهم أبن عن هذا؟ قال آخر لأبي البركات اخبط رأسك في الحائط لكي تطرد الغباء منها، وقال الجميع أشياء مشابهة بلا قيمة. قال لي ناصر الدين المشدالي إنهم مخلصون، عندها قلت: هل أمر الله للملائكة أن يسجدوا لآدم كان اختبارا؟ فأجابوا نعم، قلت: هل يختبر العبد بالأمر بتقبيل يد سيده؟ أجابوا لا، لأن هذا واجب على العبد ولا يحتاج إلى أمر.

فشرحت لهم، وهذا الذي جرى مع الملائكة إذا أمرهم الله أن يسجدوا أمام واحد أعلى منهم، فسيكون مثل ما كان يحدث من العبد الذي لا يمكن أمره بتقبيل يد سيده، فصمتوا.

كثير من هذه الحكايات كانت تقع لأبي البركات، وقد روى المقري بعضها في الفصل الذي خصصه له.

كان أبو البركات البلفيقي أحد العلماء الموقرين في عصره ومن أفضلهم علما، لعلمه وموهبته ومناقبه الإنسانية المتميزة، أفكاره وحكمه ذاعت، ولكنه لم يكن يذكرها. يحكى كيف أن الكاتب والفقيه أبا الحسن بن الجياب ردد كلماته التي كان نسيها هو نفسه عندما قال: "إن العالم مثل الإنسان الذي يصب الماء في سلة، إذا دام في عمله فهو دائما لديه ماء، فإذا تعب من دفع الماء سيبقى فارغا". كلماته هذه كانت مرجعا له في حياته.

أما أنه كان شاعرا فإن أكثر شعره ذو صور بلاغية مستعملة بدقة وأستاذية، بحيث يصعب ترجمتها، وموضوعاته المفضلة هي: الزهد والمدح والسخرية، وأما ناثرا فهو مؤرخ وكاتب سير، ومن بين كتاباته **تاريخ المرية**، وهو فقيه، ...إلخ. كتب كتبا كثيرة، ولكن أكثر سيره أخذها من مشاهداته، وأكثرها تقريبا لم تنته كما قالوا، أو في مسوداتها.

٤٣- ابن خلدون، **التعريف** ، ص ٣٠٥-٣٠٦.

ورغم كل ذلك أرى أنه من غير المعقول أن يكون شخص مثله مذكور بصفته مصدرا لأفكار مهمة، وتأثير كبير، يبدو لي أنه من المستحيل ـ ونحن نستفيد منه ـ أن يترك كل كتبه بدون انتهاء، هل موهبته العلمية لم تتركه راضيا، وهي التي تدفعه أن يعد مؤلفاته غير كاملة؟ من المؤكد أننا ليس لدينا أخبار عن أي مخطوط يحتوي على مؤلفات أبي البركات، مع أنها كانت كثيرة ومهمة. لا ريب أن اكتشافه سيكون ذا قيمة كبيرة، والدقة نفسها في تواريخه في أشعاره التي يبدو فيها دائما الزمن المضبوط الذي أنشدها فيه هذا يوحي إلينا أن أبا البركات كان رجلا مدققا في مصادره، من أجل ذلك تكون أخباره التاريخية والأدبية في مؤلفاته ذات قيمة كبرى بلا شك.

سأثبت هنا قائمة بكتبه وفقا لما أورده الذين ترجموا له، على أمل أن توجد مخطوطاته يوما ما.

مؤلفات أبي البركات

١- ديوانه، وهو يحمل عنوان **العذب والأجاج من شعر أبي البركات بن الحاج** وقد لخصه الشريف الغرناطي، وسماه: **اللؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات يستخرجان**، ذكر في كتاب **الإحاطة**، و**نفح الطيب**، و**نيل الأوتار**.

٢- كتاب **قد يكبو الجواد** في ذكر أربعين غلطا عن أربعين من النقاد، يبدو أنه يشبه كتاب **التصحيف** لأبي الحسن الدارقطني، المذكور في **الإحاطة** و**النيل** و**الديباج**.

٣- كتاب **قد وجل في نظم الجمل**، ذكر في **الإحاطة** و**الديباج**.

٤- كتاب **خطر فنظر ونظر فخطر** في تنبيهات على وثائق ابن فتوح. ذكر في **الإحاطة** و**الديباج**.

٥- كتاب **الإفصاح فيمن عرف في الأندلس بالصلاح** ورد في **الإحاطة** و**الديباج** و**الدرر الكامنة**. كذلك بونس بويجس في كتابه **المؤرخون والجغرافيون** ص ٣٣٣، وكذلك ذكره حاجي خليفة في كتابه **كشف الظنون**، ج ١، ص ٥٥٢ من الترجمة.

٦- **حركة الدخولية في المسألة المالقية** ذكر في **الإحاطة** و**الديباج**، في هذا الكتاب الأخير ورد العنوان هكذا **حركة الرجولية في مساءلة المالقية**.

٧- **سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الأذناب إلى الأكابر**، ذكر في **الديباج**.

٨- **تاريخ المرية** لم يتم، ذكر في **الإحاطة** و**الديباج** و**الدرر الكامنة** وفي كتاب **المؤرخون والجغرافيون** لبونس بويجس، ويضيف هذا المرجع الأخير كتاب **تاريخ المرية وباجة**.

٩- **عرائس بنات الخواطر والمجلوات على منصة المنابر** وهو يضم مجموعة خطبه التي ألقاها في حياته، وهو موظف خطيبا. ذكر في **الإحاطة** و**الديباج**.

١٠- **مغربات خبر في جلب الثمر إلى الشجر**، ذكر في **الديباج**.

١١- **المؤتمن على أنباء أبناء الزمن، ذكر في الإحاطة والنفح والديباج والدرر الكامنة** وفي **الديباج** ورد العنوان: **المؤتمن على أنباء الزمن** وقد استخدمه ابن الخطيب مصدرا وفقا لما قرره في سيرة أبي عبدالله الصائغ بن لب في **الإحاطة**، مخطوط الأسكريال، لوحة ٣٩.

١٢- **تأليف في أسماء الكتب والتعريف بمؤلفيها على حروف المعجم**، ذكر في **الإحاطة** و**الديباج** وبونس بويجس.

١٣- **ما اتفق لأبي البركات فيما يشبه البركات**، ذكر في **الإحاطة**.

١٤- **ما رأيته وما رئي لي من المقامات**، ورد في **الإحاطة**.

١٥- **المرجع بالدرك على من أنكر اللفظ المشترك**، ورد اسمه في **الإحاطة** و**الديباج** و**الدرر الكامنة**، وفي **الإحاطة** جاء العنوان **المرجع بالدرك في من أنكر وقوع المشترك**.

١٦- **مشتبهات في مصطلحات العلوم**، ذكر في **الإحاطة** و**الديباج**، والعنوان في المرجع الأول **مشتبهات مصطلحات العلوم**.

١٧- كتاب **ما كثر دوره في مجالس القضاة**، ذكر في **الديباج**.

١٨- **الغلسيات** وهو يدور حول ما قاله في خطبه عن **صحيح مسلم**. هكذا قيل في **الديباج**، وابن الخطيب في **الإحاطة** يسميه **الفلسفيات** ولكن يبدو أن ما ورد في **الديباج** أكثر منطقية، ثم يقول: إنه كتب هذا الكتاب من التغليس، وهو صلاة الليل.

١٩- **الفصول والأبواب في ذكر من أجاز عنه من الشيوخ والأتباع والأصحاب**، ذكر في **الديباج**.

٢٠- ذكر المقري كتابا ولم يثبت عنوانه، وفيه كتب أبو البركات أخبار أسلافه، ومواهب أبي إسحاق إبراهيم، جده الأعلى.

٢١- أورد حاجي خليفة في كتابه عنوان كتاب لأبي البركات، وربما كان خطأ، لأنه لم يذكر في **الإحاطة** ولا **الديباج**، وهما المرجعان اللذان احتويا على قائمة كاملة بكتب أبي البركات، وعنوان الكتاب **تاريخ مرسية** من بلاد الأندلس، لعله وهم واختلط عليه اسم كتاب **تاريخ المرية**.

****